

الفصل الحادي عشر

طوائف من الشعراء

١

الفرسان

رأينا القبائل في الجاهلية تعيش معيشة حربية، فهي كتائب تنزل للرعي، وفي الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كي تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل. وكانوا يحاربون راجلين وركبانا على الإبل والخيل، وكانوا يرون في الثانية مزية على الأولى لسرعتها في الطراد والإغارة، فأحبوها وعنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق. وقد دارت أوصافهم لها في شعرهم الجاهلي، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما، وفي معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخييلهم، ومن اشتهر بوصفها أبو دؤاد الإيادي وطفيل الغنوي وسلامة بن جندل التميمي.

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة في حربهم عليها لخصومهم وأقربانهم، وهم كثيرون، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم. وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة في حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبي، وهو الذي أشعل نيرانها ثأراً لأخيه كليب، ويقال إنه أول من هلل الشعر وأرقه^(١). وشعره يدور في رثاء أخيه وتوعد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة، وكانت الحرب كما قدمنا في غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب سجلاً، تارة

(١) أنظر أخباره في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤ / ٥ والشعر والشعراء ٢٥٦ / ١ وخزانة الأدب للبغداد ٣٠٢ / ١.

تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك. وكان لا يني يحمس قومه ويدعوهم إلى واصل القتال، مفصحا في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام، واسمعه يقول: (١).

وإني قد تركت بواردات بحيرا في دم مثل العبير^(٢).
وهمام بن مرة قد تركنا عليه القشعمان من النسور^(٣).
وصبحنا الوخوم بيوم سوء يدافعن الأسنة بالنحور^(٤).
كأنا غدوة وبني أيننا بجوف عنيزة رحيما مدبر^(٥).
فلولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض يقرع بالذكور^(٦).

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر في موقعة واردات وموقعة عنيزة، وقد قتل في الأولى بجير بن الحارث بن عباد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حر اللقاء.

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطفيل^(٧). فارس بني عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوزان وأشدها بأسا، وكان بنو عامر ينتشرون في أواسط نجد شرقين الحجاز، وجنوبي منازل عبس وذبيان، وغربي منازل بني تميم، وكانت مراعيهم تمتد جنوبا حتى بني حنيفة في اليمامة وبني الحارث بن كعب في نجران ومذحج في شمالي اليمن. ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والأغاني ٥/ ٥٣.

(٢) واردات: موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس. العبير: الزعفران.

(٣) القشعم من النسور: الضخم، وهمام: أخو جساس قاتل كليب.

(٤) الوخوم: عشيرة من بكر.

(٥) عنيزة: موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس. والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما في الأخرى، والصورة واضحة.

(٦) حجر: قرية باليمامة. البيض: خود الحرب. يقرع: يضرب. والذكور: أجود السيوف وأيسها وأشدها.

(٧) أنظر أخبار عامر في الأغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٥٠، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ١/ ٢٩٣ وأنظر الخزانة

١/ ٤٧٣، ٢/ ٤٩٢ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض في يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جبلة ص ٦٥٤ وتاريخ

ابن كثير ٥/ ٥٦ والسيرة النبوية ٤/ ٢١٣.

صف عبس، فاصطدمت بذبيان وأحلافها. وقد جعلهم انتشارهم في أواسط نجد يحاربون قبائل كثيرة مضرية ويمينية.

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لایل مع ديوان عبيد بن الأبرص في سلسلة جب التذكارية، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه في حروب قومه مع ذبيان في يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرهما من الأيام. وقد أظهر بطولة نادرة في يوم فيف الريح وكان لقومه على بني الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج، وتغنى به طويلاً في شعره على شاكلة قوله^(١):

لقد علمت عليا هوزان أنني	أنا الفرس الحامي حقيقة جعفر ^(٢) .
وقد علم المزنوق أني أكره	على جمعهم كر المنيح المشهر ^(٣) .
إذا أزور من وقع الرماح زجرته	وقلت له: ارجع مقبلاً غير مدبر ^(٤) .
وأنبأته أن الفرار خزاية	على المرء ما لم يبيل جهداً ويعذر ^(٥) .
ألست ترى أرماحهم في شرعا	وأنت حصان ماجد العرق فاصبر ^(٦) .
وقد علموا أني أكر عليهم	عشية فيف الريح كر المدور ^(٧) .
وما رمت حتى بل نحري وصدرة	نجيع كهذاب الدمقس المسير ^(٨) .

(١) المفضليات ص ٣٦١.

(٢) عليا هوزان: مجموعة من قبائلها هي سعد وجشم ونصر وثقيف. وحقيقة: همى. جعفر عشيرة عامر، وهي جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر.

(٣) المزنوق: اسم فرسه. المنيح: من قدامح الميسر ويكثر جولانه في القدامح. فكلما خرج منها رد فيها.

(٤) أزور: مال وانحرف.

(٥) خزاية: خزى. يعذر: يأتي يعذر.

(٦) شرعاً: مسددة.

(٧) المدور: الذي يطوف بالدوار وهو من أصنامهم.

(٨) ما رمت: ما برحت. النجيع: الدم. الدمقس: الحرير. المسيرك: برود من اليمن بها خطوط.

وهو يصور في هذه القطعة اقتحامه للحروب، وكيف أنه لا يتخلى عن بسالته الحربية، حتى يحمي عشيرته وضعفاءها ونساءها، ويقول إنه لا يزال يرد إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها، وإن أزور عنها أو انحرف دفعه فيها دفعاً، أما الفرار وعاره فدونه الموت، ويدعو فرسه إلى التأسى به، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال، ويدعو فرسه إلى الصبر معه، حتى ينالا شرف النصر جميعاً، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة، ويقول إنه لم يبرح موضعه في ميدان القتال، حتى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء.

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرتة لعلقمة بن علاثة ابن عمه، بسبب مناقستها على سيادة عشيرتهما، وقد احتكما إلى هرم بن قطبة الفزاري، فسوى بينهما - كما مر بنا - في عبارته الماثورة إذ قال لهما: "أنتما كركبتي البعير الأدرم (الفحل) تقعان إلى الأرض معاً". وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا في صف عامر ضد علقمة. وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة، غير أن الله لم يوفقه للإسلام، فمضى على وجهه، والرسول غضبان عليه، ولم يلبث أن مات بالطاعون على اثنتين وستين سنة.

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنتر بن شداد^(١) (وقيل ابن عمرو بن شداد) العبسي، وكان أبوه من أشراف عبس، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة، وقد ورث عنها سواده، ولذلك كان يعد من أغربة العرب، كما ورث عنها تشق شفتيه، ولذلك كان يقال له عنتر الفلحاء. وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة. ومن ثم لم يعترف شداد يعنتر ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس والغبراء، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذي أصابه في الصميم، وفي ذلك يقول^(٢):

(١) أنظر في عنتر الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٣٧/٨ والشعر والشعراء ٢٠٤/١ وما بعدها والخزانة ٥٩/١ وراجع ديوانه برواية الأصمعي، في مخطوطة الشنتمري "شرح الدواوين الستة" بدار الكتب المصرية. وقد طبع مصطفى السقا نص المخطوطة بشرح مختصر في مجموعة "مختار الشعر الجاهلي". وطبع الديوان طبعات أخرى في بيروت والقاهرة وليدن.

(٢) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٨.

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري، وأحمى سائري بالمنصل^(١).

وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت ألفيت خيراً من معم مخول^(٢).

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوي أو شطره الأول، أما شطره الثاني من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب، حتى غدا في قومه خيراً ممن عممه وخاله من سادتهم، إذا لا يغنى القبيلة أحد غناه ولا يذود عن حماها زياده، ويصور لنا في نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل^(٣).

فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل^(٤).

فاقني حيائك لا أبالك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل^(٥).

إن المنية لو تمثل مثلت مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل^(٦).

والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقى فوارسها نقيع الخنظل^(٧).

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبه له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب، بل إنه ليصمم أذنيه عن ندائها قائلاً لها إن المنية مورد كل إنسان ولا بد أن أموت، فليكن موتى شريفاً في ميدان الحروب. ويدعوها أن تصون حيائها، فهو ميت على كل حال، وخير له أن يموت مناضلاً عن قومه مدافعاً عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم. ولا يلبث إحساسه بطولته أن يتضخم في نفسه، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت في مثال لكانت في مثل صورته وخلقه، وهو

(١) منصباً: أصلاً. المنصل: السيف.

(٢) تلاحظت: نظرت من يقدم على العدو.

(٣) الحتوف: المتالف.

(٤) منهل: مورد.

(٥) أقنى: احفظي وصوني.

(٦) الضنك: الضيق.

(٧) ساهمة: متغيرة.

يقتحم الصفوف، والخيل ساهمة من هول الحرب، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الخنظل.

وقد طارت شهرة عنزة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية، وما زالت ذاكرة عالقة بأذهان العرب إلى اليوم، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية، وقد اتخذت من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تعد إلياذة العرب، وهو فيها يحارب في الجزيرة العربية وخارجها في الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال إفريقيا والأندلس، وينازل الصليبيين، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم في الجاهلية وفي الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح في حروبهم مع الروم ولاصليبيين في الشرق والغرب. ونحن لا نعني الآن بعنزة الأسطورة، إنما نعني بعنزة الفارس الجاهلي الذي دوخ الأقران والأبطال في حروب داحس والغبراء، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلح شفتيه، والذي لا شك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية.

ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضرباً من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة، وقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحملهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار. وهو جانب واضح في أشعار عنزة، ونظن ظناً أنه نماه عنده ما قصة الرواة من أنه طلب عبلة من عمه مالك فأبأها عليه لسواده، ولأنه ابن أمة، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس. ومن ثم كان يمكن أن يعد أباً لشعر الحب العذري عند العرب، كما يعد فعلاً أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السايمة التي استرعت أنظار الصليبيين، فاتخذوا منها مثلاً لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عذري^(١).

(١) أنظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها.

وردد البصر في أشعار عنتره فستجده يأسر لك بمثله الخلقية الرفيعة، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغي ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم، فإن ظلم تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه. وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته، وإذا دعاه داعي المكرمات لبي بأذلاً كل ما يملك عن طيب نفس، يقول- في معلقته- مخاطباً ابنه عمه عبلة التي شغف قلبه بها حباً:

أثنى على بما علمت فإنني	سمح مخالفتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل	مر مذاقته كطعم العلقم ^(١) .
وإذا شربت فإنني مستهلك	مالي، وعرضي وافر لم يكلم ^(٢) .
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شئائلي وتكرمي

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته في الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصب عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويصمى. ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه، فيقول:

يخبرك من شهد الوقائع أنني
أغشى الوغي وأعف عند المغنم^(٣).

فهو يقدم في أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها. إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار. وما يزال يحدثنا في شعره عن كرامته، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان، يقول في لاميته^(٤):

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكّل

(١) باسل: كربه.

(٢) يكلم: يجرح.

(٣) الوغي: الحرب.

(٤) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص ٣٨٧، والطوى: ضمور البطن، ويريد به الجوع الشديد.

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الخبيث الدنيء. وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا في أشعاره معان نبيلة، وهي معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقي، حتى لنراه يرقى لأقرانه الذين يسفك دماءهم، يقول - في معلقته - وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم:

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم^(١).

فهو يرفع من قدر خصمه، فيدعوه كريماً، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء في ساحة القتال. وكان يحيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذي يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم، يقول مصوراً آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم^(٢).

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وكأنها فرسه بضعة من نفسه. وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات، فإذا سبى امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها. وكما للسبية حرمتها كذلك لامرأة جاره، وخاصة إذا كانت زوجة صديق، فإنه يغض طرفه عنها ولا يتبعها قبله وهواه، يقول^(٣):

ما استمت انثى نفسها في موطن حتى أوفي مهرها مولاها^(٤).

أغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الحرب لا أغشاها^(٥).

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها

(١) يريد بالثياب جسده وبدنه.

(٢) أزور: مال وانحرف. اللبان: الصدر. التحمحم: صهيل فيه شبه الأنين.

(٣) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٠٩.

(٤) استهام المرأة: روادها عن نفسها. الموطن هنا: موطن القتال.

(٥) أغشى: أزور.

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة، وهي مروءة طرزها حب عذري عفيف لابنه عمه عبلة، وحقاً إن هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء العصر الأموي، بسبب المعاني الروحية التي بثها الإسلام في نفوس العرب، وهو لم يشع في الجاهلية، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة، فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب، بل أيضاً في حبه، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده، فلم يزوجه من ابنته. ومضى يحبها حباً عفيفاً، أو قل حباً يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونفاؤها وفيه الفؤاد الملدع الذي يكظم حزنه فتفضحه عبراته، يقول^(١):

أفمن بكاء حمامة في أيكة ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل^(٢).
فالحام يهيجه كما يهيجه النسيم الذي يهب من صوبها، وكما تهيجه الرسوم والأطلال، إذ يبعث الحنين بعقله وبقلبه، يقول في معلقته:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم^(٣).
ولقد نزلت - فلا تظني غيره -
مني بمنزلة المحب المكرم
ودائماً نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها، لا لغاية حسية، ولكن ليمتع طرفه بجهاها. ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها في معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية، فمن أجلها يحارب ويستبسل في القتال، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمي حماهم، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده. وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج، يقول:

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل منى ويبض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

(١) مختار الشعر الجاهلي ٣٨٧.

(٢) أيكة: شجرة. ذرفت: سالت. المحمل: علاقة السيف.

(٣) أقوى وأقفر: خلا ممن كان يسكنه.

فهو دائم الذكر لها في وغي الحرب، حتى حين تعبت به سيوف أعدائه ورماحهم، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر، فلا غرو أن يذكرها في ساعات القتال الحرجة، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس، بل يبتسم، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف، فيؤمن بأنه منتصر.

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنتره، فلم تصبح فروسية حربية فحسب، بل أصبحت فروسية خلقية سامية، فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب، وفيها التسامى عن الدنيا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق. ويقال إنه قتل في غارة له على بني نبهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن، إذ أصابه أحد رماثهم بسهم من سهامه، ويقال بل مات حتف أنفه^(١).

(١) أنظر الأغاني ٨ / ٢٤٥.

الصعاليك^(١)

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق. ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحداية وأبى الطمحان القيني، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آبائهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلسكة وتأبط شراً والشنفري، وكانوا يشكرون أمهاتهم في سوادهم فسموهم وأضربهم باسم أغربة العرب، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وحيث قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.

وتتردد في أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو، فيقال: "أعدى من السليك" و "أعدى من الشنفري" وتروي عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجان، من ذلك ما يقال عن تأبط شراً من أنه "كان أعدى ذي رجلين وذو ساقين وذو عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الأطباء، فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه، فلا يفوته، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله"^(٢). وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخليل والإغارة عليها، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النحام^(٣)، وللشنفري فرس يسمى اليعموم^(٤)، أما اسم فرس عروة بن الورد فقرمل^(٥). وكانوا يغيرون أحياناً فرادي وأحياناً في جماعات.

(١) راجع بحثاً في الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف).

(٢) الأغاني ١٨ / ٢١٠.

(٣) ذيل الأمايلي للقال ص ١٨٨.

وكانت أكثر المناطق التي يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها في جبال السراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية ففي كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطاع الطرق وقراصنة الصحراء. وهم في أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم في أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيرًا من البر بالأقارب والأهل، وأيضًا فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة، ويصور لنا ذلك أبو خراش الهذلي فيقول^(٣):

وإني لأثوى الجوع حتى يلمني	فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي ^(٤) .
وأغتب الماء القراح فأنتهى	إذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم ^(٥) .
أرد شجاع البطن قد تعلمينه	وأوثر غيري من عيالك بالطعم وللموت
مخافة أن أحيا برغم وذلة	خير من حياة على رغم

فهو يفتخر لزوجته بأنه يصبر على الجوع، حتى ينكشف عنه، دون أن يلحقه فيه ضيم، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم من حوله اشحاء النفوس بالطعام، أما هو فحتى إن وجد الطعام أثر به عياله وأولاده. وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل. وسرى عما قليل قروة بن الورد يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنتره. وكأنها تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، وهي حقًا تقوم على السلب والنهب، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيدًا كريمًا، وقرأ في صعاليك هذيل من مثل أبي كبير والأعلم وفي السليك وتأبط شراً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته في الحياة أو على الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقاً رفيعاً من البر، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاهاً لا يرعى عهداً

(١) ديوانه المطبوع في لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠.

(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠.

(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١٢٧/٢ والأغاني ٤٢/٢١.

(٤) أثوى: أطيل حبسه.

(٥) أغتب: أشرب عشاء. القراح: الصافي. المزج: البخيل.

ولا ذمة. ونقف قليلاً عند أكثرهم دوراً على الألسنة، وهم تأبط شراً والشنفري وعروة بن الورد.

أما تأبط شراً فمن قبيلة فهم واسمه ثابت^(١) بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل بل أمة حرة من فهم تسمى أميمة. واختلف القدماء في تعليل لقبه "تأبط شراً" فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج، فلما سئلت عنه قالت: تأبط شراً ومضى لوجهه، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعي. وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنایات وجرائر، أي إنه يحمل دائماً في أطوائه شراً يريد أن ينفذه. ويظهر أن أباه مات وهو صغير، فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي، وكان صعلوكاً كبيراً، فخرجه على شاكلته، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلكه. وكان يرافق الشنفري في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن براق. وليس له ديوان شعر مطبوع، غير أن له أشعاراً كثيرة منشورة في كتب الأدب، وتروى له مغامرات مختلفة، وهي مطبوعة بطابع القصص الشعبي، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نسب إليه من أشعار، فمن ذلك لاميته التي أنشدها أبو تمام في حماسته يرثي بها خاله والتي تستهل بقوله: "إن بالشعب الذي دون سلع" فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر^(٢). ويمكن أن ندخل في هذا الباب من الانتحال ما يروي له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجن أو للغول. وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفري وعمرو بن براق على بجيلة في الطائف، إذا أصدوا لهم كميناً على ماء أوثنتهم غير أنه وصاحبيه دبوا حيلة بارعة، نجوا بها عدواً على الأقدم، ويصور لنا عدوه وشده السريع حينئذ فيقول:

(١) أنظر ترجمته في الأغاني ٢٠٩/١٨ والشعر واشعراء ٢٧١/١ وشرح شواهد المغنى للسيوطي ص ١٩، ٤٣ والخزانة ٦٦/١.

(٢) أنظر تعليق التبريزي على القصيدة في شرحه لديوان الحماسة.

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق^(١).

كأنها حثحثوا حصا قوادمه أو أم خشف بذى شت وطباق^(٢).

لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر وإذا جناح بجنب الريد خفاق^(٣).

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبض الشد غيداق^(٤).

وواضح أنه يذكر كيف فات عدائي بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عدوه، وكأنها جن جنونه. ويمضي في رسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذي يقدره ويحله، قائلاً:

لكنما عولى إن كنت ذا عول على بصير بكسب الحمد سباق^(٥).

سباق غايات مجد في عشيرته مرجع الصوت هدا بين أرفاق^(٦).

عاري الظنايب ممتد نواشره مدلاج أدهم واهي الماء غساق^(٧).

حمال ألوية شهادة أندية قوال محكمة جواب آفاق^(٨).

(١) العيكتان: موضع. معدى: عدو.

(٢) حثحثوا: حركوا وأثاروا. القوادم: ما يلي الرأس من ريش الجناحين. الحص: جمع أحص وهو ما تنثر ريشه وتكسر لسرعته، يريد بذلك الظليم. الخشف: ولد الظبية الشث والطباق: من نباتات الصحراء.

(٣) ذا العذر: الفرس. والعذر: ما أقبل من شعر الناصية على الوجه. وإذا جناح: يريد الطير. الريد: حرف الجبل.

(٤) السلب: ما يسلب في الحرب. الواله: ذاهب العقل. القبض: السريع. الشد: العدو. غيداق: واسع.

(٥) العول: الاستغاثة، وأصله رفع الصوت كالعويل.

(٦) مرجع الصوت: يصيح أمراً ناهياً. أرفاق: رفاق. الهد: الصوت الغليظ.

(٧) عاري الظنايب: خفيف اللحم، وأصل الظنوب عظم السابق. النواشر: عروق ظاهر الذراع. ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق. الأدهم: الليل. واهي الماء: مطره شديد. غساق: شديد الظلمة.

(٨) المحكمة: الكلمة الفاصلة.

فذاك همي وغزوي استغيث به إذا استغيث بضافي الرأس نعاق^(١).

فهو إنما يعول على هذا الصعلوك المثالي الذي يشركه في غزواته والذي يتصف بسبقه إلى المحامد في عشيرته، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته في اقتحام الليالي المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذي يحمل لواءها، وإذا كانت السلم كان ذا رأي صائب يتردد في مجالي العشيرة وأنديتها. ولا ينسى أن يضيف إلى هذا الخصال خصلة الكرم، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه، حتى إنه لا يبقى على شيء لغدة، ويزجره زجراً شديداً، يقول:

بل من لعذالة خذالة أشب حرق باللوم جلدي أي تحراق^(٢).

يقول أهلكت مالا لو قنعت به من ثوب صدق ومن بز وأعلاق^(٣).

عاذلتي إن بعض اللوم معنفة وهل متاع وإن أبقيته باق^(٤).

ولعل في هذه الأبيات وما سبقها ما يدل في وضوح على أن الصعلوك الذي كان يقطع الطريق في الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفات الفروسية وما بعثت لعصره من سمو في الأخلاق. وما زال تأبط شراً يقوم بمغامراته حتى قتل في إحدى غاراته بمنازل هذيل.

أما الشنفرى فكان من عشيرة الإواس^(٥) بن الحجر الأزدية اليمنية، فهو قحطاني النسب، ويدل اسمه، ومعناه الغليظ الشفاه^(٦)، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه، فهي أمة حبشية، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عد في أغربة العرب. ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزدي، إنما ينشأ في قبيلة

(١) غزوى هنا: مقصدي. ضافي الرأس: كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه. نعاق: يكثر من الصياح.

(٢) العذالة: كثير العذل. الخذالة: كثير الخذلان لصاحبه. أشب: معترض. يريد من يعينني على هذا العذالة.

(٣) ثوب صدق: ضد ثوب سوء. البز: الثياب والسلاح. الأعلاق: كرائم المال.

(٤) معنفة: عنف.

(٥) أنظر في ترجمة الشنفرى الأغاني (طبع الساسي) ٨٧/٢١ وخزانة الأدب ١٤/٢ وما بعدها وشرح المفضليات لابن

الأبباري ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالي ص ٢٠٨ وما بعدها، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨.

(٦) خزانة الأدب ١٦/٢.

فهم، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم، ومما يرجح ذلك أننا نجدده يخص بغزواته بني سلامان الأزديين معلناً في أشعاره أنه يقتص لنفسه منهم. ويقال إن الذي روضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شراً، فكان يغير معه حتى صار لا يُقام لسبيله^(١). وما زال يغير على الأزدي، وينكل بها، حتى قتل، فيما يقص الرواة، تسعة وتسعين. انتقاماً لأبيه. وأخيراً يرصدون له كميناً، فيقع فيه، ويمثلون به تمثيلاً فظيماً، يقطعون فيه جسده تقطيعاً، ويرمون به للسباع، ويقال إن رجلاً عثر بجمجمته، فعقرته، فمات. وبذلك يبلغ قتلاه من الأزدي مائة. وخيوط الأسطورة واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة، وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعاً كما تلعب في أخبار تأبط شراً رفيقه.

وللشنفري ديوان شعر صغير طبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية، ومما اشتهر له لامية العرب، وهي مما نحل عليه، فقد نص الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر^(٢)، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع في جنوبي اليمن هو إحاطة ليدل على أن قائلها كان يتجول في هذه الأنحاء، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها. وهي تصور تصويراً حياً حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية. وبجانب هذه القصيدة المتحلة نجد له قصيدته الثائية الطويلة التي رواها المفضل في مفضلياته، ثم مجموعة من المقطوعات، ويبدو في أشعاره على شاكلة تأبط شراً هزياً نحيلاً يلبس ثياباً بالية ونعالاً ممزقة. ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً في تصور حياته ومغامراته، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها في وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة، ثم مضى يصف غارة أغارها على بني سلامان في جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شراً، ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين، يقتحمون الصعاب، غير هيايين ولا وجلين، يقول:

وباضعة حمر القسي بعثتها ومن يغز يغنم مرة ويشمت^(٣).

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها.

(٢) الأمايلي للقالبي (الطبعة الأولى) ١٥٧/١.

(٣) باضعة: قاطعة. ويريد بها رفاقة الصعاليك، بعثتها: غزوت بها. حمر القسي، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها

خرجنا من الوادي الذي بين مشعلٍ وبين الجبا، هيهات، أنشأت سربتي^(١).

أمشي على الأرض التي لن تضرنني لأنكي قومًا أو أصادف حمتي^(٢).

أمشي على أين الغزاة وبعدها يقربني منها رواحي وغذوتي^(٣).

وهو يعترف في البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائنين أو مهزومين من غاراتهم أو غزوتهم، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو، بل يدفعهم دفعًا غليظًا، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق. ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتر عليهم في الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعًا، ويقص علينا ذلك في مداعبة طريفة له، إذ يدعوهم أمهم، وهو وأصحابه عيالها، يقول:

وأم عيالٍ قد شهدت تقوتهم إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت^(٤).

تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ونحن جيعاء، أي آلٍ تألت^(٥).

مصعلكة لا يقصر الستر دونها ولا تترجي للبيت إن لم تبيت^(٦).

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً إذا آنست أولى العدى أقشعرت^(٧).

وتأتي العدى بارزًا نصف ساقها تجول كعير العانة المتلفت^(٨).

إذا فرعوا طارت بأبيض صارم ورامت بها في جفرها ثم سلت^(٩).

تعرضها للشمس. يشمت: يخيّب ويفشل.

(١) مشعل والجبا: موضعان. السربة: الجماعة. أنشأت: أظهرت من مكان بعيد.

(٢) لن تضرنني: لن يخيفني بها شيء. أنكي العدو: أصيب منه. الحمة: المنية.

(٣) أمشي: إشارة إلى غزوه على رجله. أين: تعب.

(٤) أم عيال هنا: تأبط شرا. تقوتهم: تطعمهم. أوتحت: أقلت وتقرت.

(٥) العيل: الفقر وفقد الطعام. أي آل تألت: أي سياسة ساست من آله بمعنى ساسه.

(٦) مصعلكة بكسر اللام: صاحبة صعاليك. لا يقصر الستر دونها: لا تغطي أمرها.

(٧) وفضة: جعبة. سحيف: سهم عريض النصل. العدى: العداءون أو الرجال. اقشعرت: تهيأت للقتال.

(٨) بارزًا نصف ساقها: كناية عن الجد في الأمر. العير: حمار الوحش. العانة: جماعة أتته الوحشية.

(٩) فرعوا: دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم. أبيض صارم: سيف قاطع. الجفرة: الجعبة. رامت بها فيه أي بسهامه. سلت

حسام كلون الملح صاف حديده جراز كأقطاع الغدير المنعت^(١).

تراها كأذنان الحسيل صوادراً وقد نهلت من الدماء وعلت^(٢).

وواضح أنه ينتقل من تصوير شح هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أما حقيقية، فهي صاحبة صعاليك، لا تتخذ الستر ولا تبنت في الخيام، ولها جعبة سهام، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتته، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها، ثم نازلتهم هي ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التي تنهل من دمائهم وتعل، فترى وكأنها أذنان الحسيل، وهي أولاد البقر المستأنسة. ووقف لآيل في ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلاً على أصل الشنفري وأنه يماني حقاً، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا في بلاد اليمن^(٣).

ونمضي مع الشنفري في القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه ان يقصد بها بني سلامان، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفي حقه وغليله، يقول:

جزينا سلامان بن مفرج قرضها بما قدمت أيديهم وأزلت^(٤).

وهنيء بي قوم وما إن هنأتهم وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي^(٥).

شفينا بعبد الله بعض غليلنا وعوف لدى المعدي أوان استهلته^(٦).

وإني لحلو إن أريدت حلاوتي ومر إذا نفس العزوف استمرت^(٧).

سلت السيف: شهرته.

(١) جراز: قاطع. أقطاع الغدير: قطع الماء فيه. شبه السيف بها في اللمعان والبريق.

(٢) الحسيل: جمع حسيلة. وهي أولاد البقر. والنهل: الشرب الأول والعلل: الشرب المكرر.

(٣) راجع ترجمة المفضليات للآيل ٦٨ / ٢.

(٤) أزلت: قدمت.

(٥) معنى الشطر الأول أن الأزدي يهتئون به وبشجاعته لأنهم منهم وفي الوقت نفسه هو لا يهنؤهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير في وضوح إلى أنه ينزل في بني فهم وليس منهم.

(٦) الغليل في أصله حرارة العطش، وهو هنا العطش إلى القتل. المعدي: موضع العدو، والمراد ساحة المعركة، أوان استهلته: في الوقت الذي ارتفعت فيه الأصوات للحرب.

وهو يصبح بأنه جزى بنى سلامان بما قدمت أيديهم، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وبأسه، وأن يقعد لهم ويقعدوا له، لما بينه وبينهم من ثأر قديم، ويحدثنا أنه شفي بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف، ويقول إنه حلوا لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل. وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلاً فقتلوه.

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الورد العسبي^(١)، وكان أبوه من شجعان قبيلته وأشرفهم، ومن ثم كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء^(٢). أما أمه فكانت من نهد من قضاة، وهي عشيرة وضيفة لم تعرف بشرف ولا خطر، فأذى ذلك نفسه، إذ أحس في أعماقه من قبلها بعار لا يمحي، يقول^(٣):

وما بي من عارٍ إخال علمته سوى أن أخوالي - إذا نسبوا - نهد

فهي عاره، الذي حلت البلية عليه منه، والذي دفعه دفعاً إلى الثورة على الأغنياء، وهي ثورة كانت مهذبة، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يروء مجاهل الصحراء، فقبيلته لم تخلعه، بل ظل ينزل بها مرموق الجانب لسيرة كانت تروغ معاصريه ومن جاءوا بعدهم، إذ اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها، ومن أجل ذلك لقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضائق بهم الدنيا. وفي الأغاني "كان عروة بن الورد، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جذب) شديدة وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة، ثم يحفر لهم الأسراب، ويكنف عليهم الكنف (الحظائر) ويكسبهم. ومن قوى منهم - إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته - خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً. حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله، وقسم له نصيبه من غنيمة إن

(١) العزوف: المنصرف عن الشيء. استمرت: من المارة.

(٢) راجع في ترجمة عروة الأغاني (طبعة دار الكتب) ٧٣/٣ والشعر والشعراء ٦٥٧/٢ والخزانة ١٩٤/٤ والشعراء الصعاليك ص ٣٢٠.

(٣) أغاني ٨٨/٣.

(٤) ديوانه ص ١٥٧.

كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك^(١). وفي خبر آخر أن عبسًا كانت إذا أجذبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة، حتى إذا أبصروا به صرخوا، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم^(٢).

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشنفري وتأبط شراً، وإنما يغزو ليعين الهلاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته، والطريف أنه لم يكن يغير على كريم يبذل ماله للناس، بل كان يتخير لغارته من عرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم^(٣). وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقي، وكأنها أصبحت صنواً للفروسية، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعي بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته. وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف. وهو يضرب بذلك مثلاً رقيقاً في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار.

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت، طبع مراراً، في جوتنجن والجزائر والقاهرة وبירות، وتردد أشعاره فيه هذه المعاني الكريمة التي قدمناها، وهي معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً، فقد كانت قبيلته تأتم به في خلاله وخصاله، وكان معاوية يقول: "لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم"^(٤) أما عبد الملك بن مروان فكان يقول: "من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد"^(٥) وكان يقول أيضاً: ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن يلدني إلا عروة بن الورد لقوله:

(١) أغاني ٧٨/٣ وما بعدها والشعر والشعراء ٦٥٧/٢.

(٢) أغاني ٨١/٣.

(٣) أغاني ٨١/٣.

(٤) أغاني ٧٣/٣.

(٥) أغاني ٧٤/٣.

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد^(١).

أتهزأ مني أن سمت وأن ترى بجسمي شحوب الحق، والحق جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قارح الماء، والماء بارد^(٢).

وعروة يعبر عن معنى إنساني رفيع، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مضنى هزيل شاحب اللون، فقال له: إنني يشركني كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة في إنائي أو طعامي، أما أنت فلا يشركك أحد، ولذلك سمت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلاً، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين البطين. وما لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد، على حين يعصف الشتاء بزمهريره. والذي لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل في البر والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء. ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعي في أصمعياته^(٣)، وهي بذلك من أوثق شعره وأصدق. وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التي تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته في الغزوات والغارات، وقد رد عليها بأنه يبغى حسن الأحدوثة وبقاءها، وأنه إنما يرمي بنفسه في المهالك من أجلها، حتى يغنيها، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان، وهي تماريه شفقة عليه:

تقول: لك الوليات هل أنت تارك ضبوءاً برجل سوداء المعاصم تعتري^(٤)

فهي تقول له إنك لن تنتهي عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية، وحرى ب أن تكف عن ذلك، حتى لا تلقى حتفك، ويرد عليها:

أبي الخفض من يغشاك من ذي قرابة ومن كل سوداء المعاصم تعتري^(٥).

(١) العافي: طالب المعروف. ويريد بقوله: عافي إنائك واحد أنه يأكل وحده.

(٢) حسا الماء: شربه شيئاً بعد شيء. القراح: الخالص الذي لاخالطه لبن ولا غيره.

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥.

(٤) ضبوء: غزو. رجل: جمع راجل ضد راكب. المنسر كمجلس ومنبر: الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين.

ومستهني، زيد أبوه، فلا أرى له مدفعاً، فاقني حياءك وأصبري^(١).

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته، ونسائها المعوزات، والعفاة، طلاب العطاء من الضعفاء، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً. ويعرض عليها صورتين للصعلوك، صورة رديئة، وصورة جيدة، أما الصورة الأولى ففيها يترأى الصعلوك خاملاً، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة، لا يهمله أهله ولا عياله ولا قوتهم، يقول:

لحي الله صعلوكاً إذا جن ليله مصافي المشاش ألفا كل مجزر^(٢).

يعد الغني من دهره كل ليلة اصاب قراها من صديق ميسر^(٣).

ينام عشاء ثم يصبح قاعداً يحث الحصا عن جنبه المتعفر^(٤).

يعين نساء الحي ما يستعنه فيضحى طليحاً كالبعير المحسر^(٥).

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه، مما يتساقط من فضلات الموسرين، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله، وحتى هو في النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء، فهو ذليل مهين يعيش عائلة على مجتمعه. ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة، لأنه يحيا حياة وضيفة. أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة، يقول في وصفه:

ولله صعلوك صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور^(٦).

(١) الخفض: الدعة ولين العيش. ويريد بسوداء المعاصم التي أجهدها الجوع والهزال. تعتري: تغشى.

(٢) مستهني: طالب للهنء وهو العطاء، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه. ألقى حياءك: صونيه وأحفظيه.

(٣) لحيك قبح ولعن. المشاش: رءوس العظام اللينة. والمجزر: موضع الجزر.

(٤) قراها: طعامها. ميسر: غني كثرت إبله.

(٥) يحث: يحرك.

(٦) الطليح: المعبي، ومثله المحسر.

(٧) صحيفة الوجه: بشرته. الشهاب: شعلة ساطعة من النار. القابس: الذي يقبس النار أو يأخذها. المتنور: المضيئ.

مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر^(١).

وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر^(٢).

فذلك إن يلقي المنية يلقيها حميداً، وإن يستغن يوماً فأجدر

فهذا هو الصعلوك الذي يعجب به عروة، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم، فيظفر منهم بكل ما يريد، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له. وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه، بل إنهم ليتنظرونه انتظاراً أهل الغائب له، علماً منهم بأنه لا بد راجع إليهم ومصيب منهم. ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجريء إن يمت تظل ذكره خالدة لمحامه ومناقبه. ويمضي فيحدثنا عن غزواته وغاياتها، يقول:

أيهلك معتم وزيد ولم أقم على ندب يوماً ولى نفس مخطر^(٣).

ستفزع بعد اليأس من لا يخافنا كواسع في أخرى السوام المنفر^(٤).

نطاعن عنها أول القوم بالقنا وييض خفاف وقعن مشهر^(٥).

ويوماً على غارات نجد وأهله ويوماً بأرض ذات شث وعرعر^(٦).

يريح على الليل أضياف ماجد كريم ومالي سارحاً مال مقتـ^(٧).

وهو في أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد، وهو قاعد في الحي، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار. لقد خلق لرعاية الضعفاء والهلاك من قبيلته، وهو لذلك

(١) مطلاً: مشرفاً. يزجرونه: يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب. المنيح: قدح سريع الخروج ولا نصيب له. المشهر: المشهور.

(٢) تشوف: تطلع. المنتظر: المنتظر قدومه.

(٣) معتم وزيد: بطنان من عبس. ندب: خطر.

(٤) كواسع: خيل تطرد إبلاً وتكسعها. السوام: الإبل السائمة. أخرى: آخر. المنفر: المذعور.

(٥) ييض: سيوف. وفي البيت إقواء. ورواية الديوان: ذات لون مشهر، ولو صحت لم يكن في البيت إقواء.

(٦) الشث والعرعر: من أشجار البادية.

(٧) يريح: يرد. ويقصد بالماجد الكريم نفسه، كما يقصد به إبله. سارحاً: سائماً في المرعى. مقتـ: فقير مقل.

لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حمى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة، وهم يهجمون تارة في الحجاز وتارة في نجد. وكل ذلك حتى يغنم ما يقدمه لضيفانه، وكم يغنم! إلا أنه لا يبقى على شيء في يده، فماله مال مقتر أو فقير مقل.

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعي وما يطوى فيها من إثار وبرٍ لفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء.

شعراء آخرون

مر بنا في غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت في أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثاني بالمدينة والواحات المنشورة في شمالها بالحجاز مثل فذك وخيبر ووادي القرى وتسياء، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية، وإن ظلوا على دينهم، ومما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أي أثر مكتوب، وقد عني هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية. وأخبارهم في الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً، ومن يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطّر - لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه عن عهود موثقة مراراً وتكراراً - إلى إجائهم عن المدينة، وأتم عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة، من يتابع ذلك يعرف إن العرب كانوا في الجاهلية يحفونهم وينفرون منهم ومن دينهم، فلم يؤثر فيهم شيئاً، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية، وينفذ بعضهم إلى النظم بها.

على أنه ينبغي أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم، فلا نشق بكل ما روه في هذا الصدد، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم. ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلاً^(١) في كتابه "طبقات فحول الشعراء" يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له، وهم على التوالي السموأل بن الغريض بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعية بن الغريض أخو السموأل، وأبو قيس بن رفاعه، وأبو الذيال، ودرهم بن يزيد. ويضيف أبو الفرج في الأغاني^(٢) وابن هشام في السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دنى وسماك والغريض بن السموأل.

(١) ابن سلام ص ٢٣٥.

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ٩٤ / ١٩ وما بعدها.

وأشهرهم جميعاً السموأل^(١) صاحب حصن الأبلق بتياء، وكان معاصراً لامرئ القيس، وممرت بنا أسطوره معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه سلاحه، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المري على اختلاف الروايات، فطلب منه سلاح امرئ القيس، فأغلق حصنه من دونه، وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن، فأخذه الحارث، وهدده إن لم يعطه السلاح قتل ابنه، فقال له: اقتله، فلن أعطيه لك. وبذلك وفي على غير عادة قومه!. وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى التي عرضت لهذه القصة في إسهاب. ومما نسب إلى السموأل خطأ القصيدة المشهورة:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداءٍ يرتديه جميل

وهي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي^(٢)، وهو شاعر إسلامي. وقد نشر لويس شيخو ديواناً له برواية نفطويه في مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهي رواية ضعيفة، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة. وروى الأصمعي تائيه له^(٣)، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال، وهي تستهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط:

نطفة ما منيت يوم منيت أمرت أمرها وفيها وبيت^(٤).
كنها الله في مكانٍ خفي وخفي مكانها لو خفيت
أنا ميت إذا ذاك ثمت حي ثم بعد الحياة للبعث ميت

وصلة هذه الأبيات بما جاء في القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نطفة يماني وأنه يحيي ثم يموت ثم يبعث؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة، وما حياته الثانية في الآخرة بمستغربة، إنها تلي موته وحياته الأولى التي تحول إليها من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ويقول جل وعز:

(١) أنظر ترجمته في الأغاني ٩٨/١٩.

(٢) شرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام (طبع لجنة التأليف) ١١٠/١.

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦.

(٤) ما منيت: ما زائدة. ومنيت: قدرت وخلقت. وبيت: هيئت.

(أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). وتردد هذا المعنى في الذكر الحكيم هو الذي يجعلنا نشك في هذه القصيدة، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظمت في العصور الإسلامية على هدي التنزيل العزيز، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظم مباشر لبعض آي القرآن الكريم مثل:

ليت شعري! وأشعرن إذا ما قيل إقرأ عنوانها وقرئت^(١).

وأصل هذا البيت قوله تعالى في سورة الإسراء: (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) وعلى هذه الشاكلة:

ميت دهرٍ قد كنت ثم حييت وحياتي رهن بأن ساموت

فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون).

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغي أن نحذر منه، وخاصة حين يُعلَى من أخلاقهم ويسمو بها، أو حين يندمج في بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي في مفضلياته شعراً ليهودي، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم.

وإذا كان العرب الشماليون في الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى، وإن ظلوا في الجملة يحتفظون بدينهم الوثني ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم، وأنه ينبغي أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم. وكانت المسيحية أمامهم في الشام ديناً للدولة، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا في غير هذا الموضع، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق، واعتنقها اللخميون في أواخر القرن السادس للميلاد، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها في جمهور عربي من سكان الحيرة سمي بالعباديين، وتشير الكلمة التي سموا بها، إلى أنهم عباد الله، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى. وقد انتشرت في الجنوب

(١) رواية هذا الشطر في ابن سلام: "قربوها منشورة فقريت". وقرئت: لغة في قرأت.

بنجران فكانت مركزاً مهماً من مراكزها، كما عرفت في بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاة وكلب وطى وبكر وتغلب وتنوخ وتيم، ويزعم اليعقوبي أن نفرًا من مكة تنصروا قبيل الإسلام^(١). وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة في الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحي، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع.

وأشهر شعراء المسيحية في الجاهلية عدى بن زيد^(٢) شاعر الحيرة المشهور، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية، خدم أبوه في دواوين الفرس وفي دواوين المناذرة بالحيرة، ولما أيفع ابنه عدى عني بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية، فكان يحسن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلم الرمي بالنشاب ولعب العجم على الخيل بالصوالة. ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠-٦٢٨م) وعهد إليه فيه بالشئون العربية، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم في بيزنطة بهدية، فلما أتاه بها أكرمها. وفي أثناء عودته مر بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر. وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفي. وظل مدة متنقلاً بين الحيرة والمدائن، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبي قابوس، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً في توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته. ويقال إن الذي أفسد ما بينهما بعض بني مرينا، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذي ولاه ما ولاه. فاضطغن عليه النعمان، وانتهاز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة، وأمر بحبسه ولم يجده عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار في مديحه. وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه، غير أن الرسول وجد عدياً قد مات في سجنه محتقلاً. وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً، وربما كان هذه الغضب أهم الأسباب في قضائه عليه كما مر بنا في غير هذا الموضع.

(١) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا) ٢٩٨/١ وراجع المحبر لاين حبيب ص ٧١، وابن هشام ٢٣٩/١.

(٢) أنظر في عدى بن زيد الأغاني (طبعة دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموشح للمرزباني ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو: "النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية".

وأهم الموضوعات التي يدور فيها شعر عدى الخمر، وذكر الموت والفناء، وهو في الموضوع الأول يعد أبا لشعراء الخمر في الجاهلية من مثل الأعشى، ثم لمن ظهوروا في العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبي نواس. وفي أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادي، وكان أدبياً ظريفاً شاعراً، وكان لا يصبر عنه، ونظن ظناً أنه هو الذي وصله بشعر عدى، إذ كان يرويه له ويغني فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت^(١):

بكر العاذلون في وضح الصبـح يقولون لي ألا تستفيق

لست أدري وقد جفاني خليلي أعدو ياومني أم صديق

ثم قالوا ألا أصبحونا فقامت قينة في يمينها إبريق^(٢).

قدمته على عقار كعين الـديك صفي سلافها الراووق^(٣).

وواضح أن من نفس الألمان والأنعام المعروفة للوليد ومن جاءوا بعده من شعراء الخمرات، وكأن القاسم العبادي هو الذي وجه الوليد ليحتذي في خمرياته على أسلوب عدى وليجري في طريقته.

ويروي الرواة لعدى بجانب شعره في الخمر أشعاراً في الفناء وزوال الحياة، وهي تجري في أسلوبين: أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية، وأسلوب قصصي يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر^(٤):

من رآنا فليحدث نفسه أنه موفٍ على قرن زوال^(٥).

وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صمم الجبال

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٦٥ / ٧.

(٢) أصبحونا: أسقونا خمر الصباح.

(٣) الراووق: الدن.

(٤) الأغاني ١٣٤ / ٢.

(٥) قرن: طرف.

رب كربٍ قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال^(١).
عمورا دهرًا بعيشٍ حسنٍ آمني دهرهم غير عجالٍ
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر يودي بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفتى في طلاب العيش حالا بعد حال
فالدنيا إلى زوال وكل من عليها فان، حتى صم الجبال، ولا يغرنك ما يغرق فيه بعض الناس
من ترف ونعيم، فعمًا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن قبلهم. ومن الأسلوب الثاني قوله^(٢):

أيها الشامت المعير بالدهر سر أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ سام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المتون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير^(٣).
أين كسري: كسري الملوك أنوشـ وأن أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور
ويستمر في ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصورًا شاخحة، وانتهى أمرهم إلى الفناء، وطوتهم الحفر
والقبور كأن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، إلى أن يقول:
ثم بعد الفلاح والملك والإمـ لة وارثهم هناك القبور^(٤).
ثم صاروا كأنهم ورق جـ ف فألوت به الصبا والدبور^(٥).

(١) الزلال: الصافي العذب.

(٢) الأغاني ١٣٨/٢.

(٣) المتون: الموت، وأعاد عليه الضمير مجموعًا.

(٤) الإمة: النعمة.

(٥) ألوت: ذهبت. الصبا والدبور: ريجان.

ويكثر البحثري في حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التي يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين. ونحن لا نطمئن إليكل هذه الأشعار، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى، فإن القصاص والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى ليتمكن القول بأن أكثر ما روي له من أشعار منحول عليه، ولعل ذلك ما جعل اللغويين يرفضون الاستشهاد بشعره، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال: "عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقته، فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد"^(١) وأكبر الظن أن هذا هو السبب في أن المفضل والأصمعي لم يشبها له في مجموعتيهما شيئاً من شعره. وقد قلنا في غير هذا الموضع إنه لا يفصح في شعره عن فكرة التثليث المسيحية، وينبغي أن لا نغلو في فهم مسيحية أمثال عدى في الجاهلية، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم، بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحياناً الرهبان والنوقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية في النصرانية، وهو مخطئ في ذلك خطأً بيناً.

وربما كان أهم شاعر جاهلي وثني ظهر عنده واضحاً التأثير بأهل الكتاب أمية^(٢) ابن أبي الصلت الثقفي، وهو من الطوائف ويقال إنه اتصل بالأخبار وتحنف ولبس المسوح وتنسك. وكان يزور مكة قبل البعثة، وله مدائح في سيد من سادات المشهورين هو عبد الله بن جدعان، الذي يقول له في بعض مديحه^(٣):

أذكر حاجتي أم قد كفاني

حياؤك إن شيمتك الحياء

كريم لا يغيره صباح

عن الخلق الكريم ولا مساء

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ١٤٩/٧ والشعر والشعراء ١/١٧٦.

(٢) أنظر في أمية الأغاني (طبعة الساسي) ٦٩/١٦ وطبعة دار الكتب ٣٢٨/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٢٢٠ وما بعدها وخزانة الأدب ١/١٣٠ وحياة الحيوان للدميري ١٥٤/٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٢٩.

(٣) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٨/٣٢٨.

بنو تيم وأنت لهم سماء^(١).

وأرضك كل مكرمة بنتها

ويقول أيضاً^(٢):

بخير، وما كل العطاء يزين

عطاؤك زين لامرئ قد حبوته

إليك، كما بعض السؤال يشين

وليس بشين لامرئ بذل وجهه

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضله الله فعاداه، وزين له الشيطان سوء عمله وأغواه، فلم يسلم، بل أخذ في معاندة الرسول ومحادثه بسلانه، ولما هزمت قريش في موقعة بدر هزيمتها المشهورة، فقتل كثير من رجالها وسادتها حز ذلك في نفسه، فراح على قتلاها بقصيدة طويلة يقول فيها^(٣):

قل من مرازية جحاح^(٤).

ماذا بيدر فالعقن

م بني الكرام أولى المماح

هلا بكيت على الكرا

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها في ليبزج سنة ١٩٩١ وفي سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت في بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية. وتدور هذه الأشعار في موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلاً بذلك على وجود الله، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله^(٥):

ورب الراسيات من الجبال

إله العالمين وكل أرض

(١) بنوتيم: عشيرة عبد اله بن جدعان.

(٢) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٣٢٨/٨.

(٣) ابن سلام ص ٢٢١.

(٤) العقنقل: كتيب رمل بيدر. المرزابة: جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم. الجحاح: جمع جحاح وهو السيد الكريم.

(٥) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص ٣٠.

بناها وابتنى سبعا شداداً
 وسواها وزينها بنور
 ومن شهب تلاً في دجها
 وشق الأرض فانبجست عيوناً
 وكل معمر لا بد يوماً
 ويفنى بعد جدته ويبلَى
 وسيق المجرمون وهم عراة
 فنادوا ويلنا ويلاً طويلاً
 فليسوا ميتين فيستريحوا
 وحل المتقون بدار صدق
 وبلا عمد يرين ولا رحال^(١)
 من الشمس المضيئة والهلال
 مراميتها أشد من النصال^(٢)
 وأنهاراً من العذب الزلال^(٣)
 وذو دنيا يصير إلى زوال
 سوى الباقي المقدس ذي الجلال
 إلى ذات المقامع والنكال^(٤)
 وعجوا في سلاسلها الطوال^(٥)
 وكلهم بحر النصار صال
 وعيش ناعم تحت الظلال

وهذه المعاني تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة، وأساوبها ضعيف واهن، ولذلك كنا
 نظن ظناً أنها وما يماثلها مما نحل على أمية. والموضوع الثاني الذي يدور فيه شعره ليس أقل من
 الموضوع الأول اتهاماً، بل لعل الاتهام فيه أوضح، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء، قصصاً لا يكاد
 يفترق في شيء عما جاء في القرآن الكريم كقوله في رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من
 افتدائه بذبح عظيم^(٦):

(١) السبع الشداد: السموات السبع.

(٢) النصال: جمع نصل وهو حد السيف.

(٣) انبجست: انفجرت.

(٤) المقامع: محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس.

(٥) عجوا: صاحوا ورفعوا أصواتهم.

(٦) ديوان أمية ص ٣٣.

ولإبراهيم الموفي بالند
 راحتساباً وحامل الأجزاء^(١).
 بكره لم يكن ليصبر عنه
 أو يراه في معشر أقتال
 يا بني أنني نذرتك للـ
 له شحيطاً فاصبر فدى لك حالي^(٢).
 فأجاب الغلام: أن قال فوه
 كل شيء لله غير انتحال
 فاقض ما قد نذرت لله وأكفف
 عن دمي أن يمسه سربالي^(٣).
 بينما يخلع السراويل عنه
 فكه ربه بكبش جلال^(٤).
 قال: خذه وأرسل ابنك إنني
 للذي إن فعلتما غير قال

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ في عصور متأخرة عن الجاهلية. وقد ذهب هيار يزعم حين أطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم^(٥)، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بين الانتحال، ولما تورط في هذا الخطأ البين، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين^(٦). ويظهر أن الانتحال على أمية قديم، ففي ابن سلام أن الحسن بن علي بن أبي طالب استنشد النابغة الجعدي بعض شعره، فأنشده قصيدته:

الحمد لله لا شريك له
 من لم يقلها فنفسه ظلماً

فقال له: "يا أبا ليلى ما كانا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي اللت، قال: يا بن رسول الله! والله إني لأول الناس قالها^(٧)" وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدي وأمية. ومما نحلوا أمية

(١) الأجزاء: العظام.

(٢) شطيحاً: ذبيحاً.

(٣) سربالي: ثوبي.

(٤) جلال: عظيم.

(٥) أنظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥.

(٦) أنظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ١/ ١١٣ ودائرة المعارف الإسلامية في "أمية".

(٧) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها.

من قديم أيضاً أشعار مختلفة في قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات، ويشركه عدى في بعض هذه الجوانب، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانها كثيراً من الشعر الذي أرادوا به إلى العظة والاعتبار، وإنما نقول إنهم نحلوها ذلك من قديم، لأننا نجد الجاحظ ينشد لها أشعاراً كثيرة في هذا الاتجاه^(١).

وواضح مما قدمناه أن ما روي من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصر من العرب في الجاهلية وكذلك من تحنف كأمية دخله وضع كثير، ولذلك ينبغي أن نحترس منه وأن لا نتسع في الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم، إذ يجري فيه الانتحال، وقد دخله كثير من الغثاء والإسفاف في اللفظ والتعبير.

(١) أنظر مثلاً الحيوان ٢/ ٣٢٠ وما بعدها، ٣/ ٥١١، ٤/ ١٩٦ وما بعده.